قلتُ[١]: ويحيى ابن زبادة هو منشىءُ الرِّسالة إلى السُّلْطان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ تتضمن العَتْب عليه، وقد أثبتها فيما تقدَّم[٢]، وهي من غُرَر الرَّسائل.

أبو الهيجاء السَّمين[٣]

حسام الدين الكُرْدي. قد ذكرنا أَنَّه قَدِمَ بغداد، وبعثه الخليفةُ إلى هَمَذَان، فلم يتمَّ له أمر، واختلف الأمراء عليه، وتفرَّق عنه أصحابه، فخاف من الخُوارَزْمي، واستحيا أن يعود إلى بغداد، فسار يطلب الشَّام على دَقُوقا، فلما وصل إليها مرض، وأقام بها أياماً، فتوفي، و[بلغني أنه][٤] كان نازلاً على تل، فقال: ادفنوني فيه، فحفروا له قبراً على رأس التَّلِّ، فظهرت بلاطةٌ عليها اسم أبيه، فدفنوه عليه.

السنة الخامسة والتسعون وخمس مئة

دخلت هذه السنة والعادل على مارِدِين، وتوفي الملك العزيز في المحرَّم، وكتبت الصَّلاحية إلى الأفضل وهو بصَرْخد ليقدم عليهم، فسار إلى مِصْر، فجعلوه أتابَك ولد العزيز.

قال المصنف رحمه الله: وفيها وقف خالي محيي الدين أبو محمد يوسف [للخليفة في رجب، ومعه قصة ببستان يقال له دولاب البقل][٤] يذكر فيها ما نال جَدِّي وأهله من الضُّرّ، وكان نجاح الشرابي بين يدي الخليفة، فجاء، فأخذ الورقة، وقال له [الشرابي][٤]: تعال إلى باب البَدْرية، ووقعوا له بالإفراج عنه، فقَدِمَ جَدِّي بغداد في شعبان، وخُلِعَ عليه، وجلس عند تُرْبة أُمِّ الخليفة، وكانت تتعصَّب له، وساعدت في خلاصه، وأنشد جدِّي للشَّريف الرَّضي: [من السريع]

إن كان لي ذنبٌ ولم آته ... فاستأنفِ العَفْوَ وَهَبْ ما مضى

[وهذا الشّعْر للرَّضي الموسوي، وقد ذكرناه في ترجمته][٤].

(١) هو قطب الدين اليونيني، مختصر الكتاب.

(٢) سلفت الرسالة في حوادث سنة (٥٨٣هـ)، ص٣٢٥ من الجزء ٢١ من هذا الكتاب.

(٣) سلفت أخباره في هذا الكتاب.

(٤) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

obeikandl.com

وأنشد أيضاً: [من الوافر]

شَقِيْنا بالنَّوى زمناً فلما ... تلاقَيْنا كأنَّا ما شَقِيْنا
سَخِطْنا عندما جَنَتِ الليالي ... فما زالتْ بنا حتى رَضِيْنا
سَعِدْنا بالوِصَال وكم سُقِيْنا ... بكاساتِ الصُّدودِ وكم ضنينا
فَمَنْ لم يحيَ بعدَ الموتِ يوماً ... فإنَّا بعدما مُتْنا حَيِيْنا

[وقد ذكرنا الأبيات][1].

وفيها استدعى الخليفةُ ضياءَ الدِّين بن الشَّهْرُزُوري إلى بغداد، وولاه القضاء.

وحجَّ بالنَّاس مُظَفَّر الدِّين وجه السَّبُع.

وفيها توفي

الملك العزيز عثمان[2]

ابن [يوسف][1] صلاح الدين، صاحب مِصْر، [وقد ذكرنا أنه ولد في سنة سبع وستين وخمس مئة][1]، كان صلاح الدين يحبُّه، وكان جَوَاداً، سَمْحاً، عادلاً مُنْصفاً، لطيفاً كثير الخير، رفيقاً بالرَّعية، حليماً.

قال المصنف رحمه الله: حكى لي المبارز سُنْقُر الحلبي رحمه الله، قال: ضاق ما بيده بمِصْر، فلم يبق بالخزانة دِرْهم ولا دينار، فجاء رجلٌ من أهل الصَّعيد إلى أزكش سيف الدين، فقال: عندي للسُّلْطان عشرة آلاف دينار، ولك ألف دينار، وتوليني قضاء الصَّعيد، فدخل أزكش على العزيز فأخبره، فقال: والله لا بعت دماء المُسْلمين وأموالهم بملك الأرض، وكَتَبَ ورقةً إلى أزكش بألف دينار، وقال: اخرج، فاطرد هذا الدبر، ولولاك لأدَّبته.

وقد ذكرنا أنه وَهَبَ دمشق للمعظَّم، وكان يطلق عشرة آلاف دينار وعشرين ألفاً، وكان سببُ وفاته أنَّه خرج إلى الفيوم يتصيَّد، فَلاحَ له ظبيٌ، فركض خَلْفه [فكبا به

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في: «الكامل»: ١٢/ ١٤٠، و«التكملة» للمنذري: ١/ ٣٢٠، و«كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٤٣، «ووفيات الأعيان»: ٣/ ٢٥١-٢٥٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٢٩١-٢٩٤، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

الفرس، فدخل قربوس السرج في فؤاده، فحمل إلى القاهرة، فمات][1] في العشرين من المحرَّم، ودُفِنَ عند الشَّافعي ـ رحمة الله عليه ـ عن سبعٍ وعشرين سنة وشهور. وقيل: عن ثمانٍ وعشرين سنة.

وقال ابنُ القادسي: كان قد ركب وتبع غزالة، [فوقع][1] فاندقت عُنُقه، وبقي أربعة أيام، ومات، ونَصَّ على ولده إنْ أمضى العادل ذلك، وكانت الوصية إلى أميرٍ كبير اسمه أزكش، فوثبتِ الأسديةُ عليه، فقتلوه.

قال المصنِّف رحمه الله: وهذه من هَنَات ابن القادسي [بقوله: اندقت عنقه][1]، فإنَّ الملك العزيز ما اندقَّت عنقه، وإنما دخل قربوس السَّرج في فؤاده، وأقام بالقاهرة أسبوعين، ونصَّ على ولده ناصر الدين محمد، وهو أكبر أولاده، وكان له عشرة أولاد، ولم يذكر عمَّه العادل في الوصية. فأما سيف الدين أزكش فكان مقدَّم الأسدية، كبيرَ القَدْرِ فيهم، وعاش بعد العزيز مُدَّة طويلة، [وسنذكره][1].

ذِكْرُ ما جرى بعد وفاته:

كان لابنه محمد عشر سنين، وكان مقدَّم الصَّلاحية فخر الدين شركس وأسد الدين سراسُنْقُر وزين الدين قَرَاجا، فاتَّفقوا على ناصرِ الدّين محمد، وحلَّفوا له الأُمراء، وكان سيف الدين أزكوش مقدَّم الأسدية غائباً بأسوان، فقدم، فصوَّب رأيهم وما فعلوه، إلا أنَّه قال: هو صغير السِّنِّ لا ينهض بأعباء الملك، ولا بُدَّ من تدبيرِ كبيرٍ يحسم الموادَّ، ويقيم الأمور، والعادِلُ مشغولٌ في الشَّرْق بمارِدِين، وما ثَمَّ أقرب من الأفضل نجعله أتابك العَسْكر، فلم يمكن الصَّلاحية مخالفة الأسدية، وقالوا: افعلوا، فكتَبَ أزكش إلى الأفضل يستدعيه وهو بصَرْخَد، وكتبتِ الصَّلاحية إلى مَنْ في دمشق من أصحابهم يقولون: قد اتفقتِ الأسدية على الأفضل، وإن مَلَكَ حكموا علينا، فامنعوه من المجيء. فركب عسكر دمشق ليمنعوه، ففاتهم، وكان الأفضل قد التقى نجَّاباً من شركس إلى مَنْ في دمشق بهذا المعنى، ومعه كُتُبٌ، فأخذها منه وقال: ارجعْ، فرجَعَ إلى مِصْر، ولما وصل الأفضل إلى مِصْر التقاه الأسدية والصَّلاحية، ورأى شركس النجاب، فقال: ما أسرعَ ما عُدْتَ، فأخبره الخبر،

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

فساق هو وقَراجا إلى القُدْس، فتحصَّنا به، ثم أشارتِ الأسديةُ على الأفضل بقَصْد دمشق، وأَنَّ العادل مشغول بمارِدِين، فكتب إلى الظَّاهر، فأجابه، وقال: أقدم حتى أساعدك.

[ذِكْرُ حصار دمشق:

فقام الأفضل، وسار][(١)] بالعساكر إلى الشَّام، واستناب بمِصْر سيف الدين أزكوش، ووصل دمشق في شعبان، فأحدق بها، وبلغ العادل و[هو][(٢)] على مارِدِين، وقد أقام عليها عشرة أشهر ولم يبق إلا تسليمُها، وصَعِدَتْ أعلامُه على القلعة، وسمعوا بوفاة العزيز فتوقَّفوا، فرحل العادل [عنها][(٢)]، وترك ولده الكامل عليها، وجاء العادل ومعه دُلْدُرُم وابنُ المقدَّم وجماعةٌ من الأمراء، وكان الأفضل نازلاً في الميدان الأخضر، فأشار عليه جماعةٌ من الأمراء أن يتأخر إلى مشهد القدم حتى يصل الظَّاهر وصاحب حِمْص والأُمراء، وكانت مكيدةً، فتأخَّر إلى مشهد القدم، ودخل العادل ومَنْ معه إلى دمشق، وجاء الظَّاهر بعسكر حلب، وجاء عسكر حماة وحمص، وبشارة من بانياس، وعسكر الحصون، وسعد الدين مسعود صاحب صفد، وضايقوا البلد، وكسروا باب السَّلامة، وجاء آخرون إلى باب الفراديس ـ [فيقال: إنَّ الناصح ابن الحنبلي والشهاب وأصحابهما كسروا باب الفراديس][(٢)] ـ وكان العادل في القلعة قد استأمن إليه جماعةٌ من المِصْريين مثل ابن كهدان ومثقال الجمدار الخادم، وبلغه، فركب، وخرج إليهم، وجاء إلى جيرون، والمجد أخو الفقيه عيسى قائمٌ على فرسه يشرب الفُقَّاع، فصاح العادل: يا فَعَلة، يا صَنَعة، إلى ها هنا، فانهزموا وخرجوا، فأغلق باب السَّلامة، وجاء إلى باب الفراديس فوجدهم قد كسروا الأقفال بالمزربَّات، فقال: من فعل هذا؟ قالوا: الحنابلة، فسكتَ، ولم يقل شيئاً.

قال المصنف رحمه الله: وحكى لي المُعَظَّم عيسى رحمه الله، قال: لما رجعنا من باب الفراديس، ووصلنا إلى باب مدرسة الحنابلة رُمي على رأس أبي حُبُّ[(٣)] الزَّيت، فأخطأه، ووقع في رقبة الحصان، فوقع ميتاً، فنزل أبي وركب غيره، ولم ينطق بكلمة.

---

(١) في (ح): فسار الأفضل بالعساكر إلى الشام، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) الحُبُّ: الخابية يجعل فيها الزيت، انظر «اللسان» (حبب).

وجاء شركس وقراجا في الليل من جبل سُنَيْر، فدخلا دمشق، وأما المواصلة فساقوا على الكامل، فرحَّلوه من ماردِين، فجاء يقصد دمشق، وجمع التركمان.

وأما دمشق فإنَّه لما اشتدَّ الحصارُ عليها، وقطعوا أشجارها ومياهها الدَّاخلة إليها انقطعت عن أهلها المِيْرة، وضجُّوا، فبعث العادلُ إلى الظَّاهر يقول: أنا أُسلِّم إليك دمشق على أن تكون أنتَ السُّلْطان، وتكون دمشق لك لا للأفضل. فَطَمِعَ الظَّاهر، وأرسل إلى الأفضل يقول: أنت صاحب مِصْر، فآثِرْني بدمشق. فقال: دمشق لي مِنْ أبي، وإنما أُخذت مني غَصْباً، فلا أُعطيها لأحدٍ.

فوقع الخُلْف بينهما، ووقع التَّقاعد، وخرجت السنةُ على هذا.

ولما مات العزيز كَتَبَ الفاضل إلى العادل يعزيه يقول: أدام الله أيام مولانا الملك العادل، وفَدَتِ النُّفوس نَفْسَه الكريمة، وأحياه الله حياةً طيبة، يقفُ فيها في المواقف الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور السَّالمة والعواقب السَّليمة، ولا نقَّص الله له عَدَداً ولا عُدداً، ولا أعدمه نَفْساً ولا ولداً، ولا كدَّر له مشرباً ولا مورداً، وأعظم أجره في ولده الملك العزيز، رحم الله ذلك الوجه الكريم ونَضَّرَه، وإلى سبل الجَنَّة يَسَّره: [من الكامل]

وإذا محاسنُ وَجْهه بَلِيَتْ ... فعفا البلى عن وجهه الحَسَنِ

قال: وكانت مُدَّة مرضه بعد عوده من الفيوم أُسبوعين، فأحزن القَلْب وأَجْرى العين.

قال المصنف رحمه الله: و[هذا] البيت الشِّعْر من أبيات[1]، أولها: [من البسيط]

إني أَرِقْتُ وذِكْرُ الموتِ أَرَّقني ... فقلتُ للدَّمْعِ أَسْعِدْني فأَسْعَدَني

إنِّي أظنُّ البِلَى لو كان يَعْرِفُهُ ... عفَّ البِلى عن بقايا وَجْهِهِ الحَسَنِ

يحيى بن علي بن الفَضْل[2]

أبو القاسم ابن فَضْلان.

---

(١) كيف يكون منها، ووزن البيتين مختلف!

(٢) له ترجمة في: «الكامل»: ١٢/ ١٥٤، و«التكملة» للمنذري: ١/ ٣٣٠-٣٣١، و«المذيل على الروضتين»: ١/ ٨٥، و«المختصر المحتاج إليه»: ٣/ ٢٤٩، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٢٥٧-٢٥٨، وفي «المذيل» تتمة مصادر ترجمته.

مدرِّس النِّظامية، ولد سنة خمس عشرة وخمس مئة، وتفقَّه على محمد بن يحيى بنيسابور، وقَدِمَ بغداد، فناظر وأفتى ودرَّس، وكان مقطوعَ اليد، وَقَعَ من الجمل، فعملت عليه يدُه، فخِيْف عليه، فَقُطِعَتْ يده، وكانت وفاته في شعبان، وحَمَلَ الفقهاء جِنازته إلى الوَرْدِيَّة.

قال المصنف رحمه الله: أنشدنا عنه غيرُ واحد: [من الكامل]

وإذا أَرَدْتَ منازلَ الأَشْرافِ فعليكَ بالإسْعافِ والإنصافِ
وإذا بغى باغٍ عليك فَخَلِّهِ والدَّهْرَ فَهْوَ له مكافٍ كافِ

يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن(١)

أبو يوسف.

الملك المنصور الغازي المجاهد، صاحب المغرب، وهو الذي كَسَرَ الفنش على الزلاقة(٢)، ولم يكن في ولاة المغرب من له سيرةٌ كسيرته، ولا طَوِيَّةٌ كصالح سريرته، وقد أثنى عليه أربابُ السِّيَر، وليس الخُبْرُ كالخَبَر [وذكره عبد المنعم بن عمر في «تاريخه»، وأثنى عليه، وقال](٣): لما توفي أبوه [يوسف](٣) قام بالأمر أحسنَ قيام، فأقرَّ العيون بما قرَّر من قواعد الإسلام، ونَشَرَ كلمةَ التوحيد، وأَذَلَّ من الكُفْر كلَّ جبار عنيد، ورَفَعَ راية الجهاد، فتضوَّع باجتهاده كلُّ ناد، وأَمَرَ بالمعروف، ونهى عن المنكر، ونَشَرَ نَشْرَةً أذكى من العَنْبر، وضوء كرمه أعلى من ضوء القمر الأنور، وأقام الحدود على العالمين، وخصوصاً على أهله وعشيرته الأقربين، فاستقامتِ الأمور ببركاته، وظهرتِ الفتوح العظيمة بعزماته، وانتشرتِ الخيراتُ بمكرماته.

قال المصنف رحمه الله: وحكى لي الشيخ [الصالح الفاضل](٣) أبو العَبَّاس ابن تاميت المغربي اللواتي بالدِّيار المِصْرية [بالقرافة في](٣) سنة أربعين وست مئة من فضائله الغرائب، وكان قد صحبه زماناً، وانتفع به، واستفاد منه. قال: وكل ما أحكيه عنه فإنّما

---

(١) له ترجمة في: «الكامل»: ١٢/ ١١٣-١١٦، و«المعجب»: ٣٦٨، وما بعدها، و«المذيل على الروضتين»: ١/ ٨٦-٨٧، و«وفيات الأعيان»: ٧/ ٣-١٩، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٣١١-٣١٩، «تاريخ ابن خلدون»: ٦/ ٢٤١-٢٤٦، و«الوافي بالوفيات»: ٢٩/ ٥-١٦ وفي «المذيل» تتمة مصادر ترجمته.

(٢) انظر حاشيتنا رقم٢ ص٤٠ من هذا الجزء.

(٣) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

هو على المشاهدة والعِيان، [لا عن فلان وفلان قال:] [1] فمن ذلك أَنَّه قَدِمَ بلدَه فاس رجلٌ شريفٌ، وكان فاضلاً لطيفاً، وكان يعظ بصوتٍ طيِّب، فجلس بها، فمال النَّاس إليه، وأرادوا أن يبايعوه، وبلغ خبره إلى يعقوب، فكتب إليه كتاباً يقول فيه: قد بلغَنا قدومُك البلاد، ووصولُ بركتك إلى أهلها، ونحن نسألك أن تقدمَ علينا لنأخذ حظَّنا منك كما أخذ أهلُ البلاد حَظَّهم. وبَعَثَ إليه بعشرة آلاف دينار، فخاف الشَّريف، واجتمع إليه أهلُ البلاد، وقالوا: متى وقعتَ في يده قتلك، فأظهرِ العِصْيان، ونحن وأهل الجبال معك. فقال [الشريف:] [1] معاذَ الله أن أكون سبباً لإراقة دَم مُسْلم، ولكني أسير إليه، وأستعينُ بالله عليه، وبلغ يعقوبَ قولُه، فلما قَرُبَ من مَرَّاكُش خرج [يعقوب] [1] فاستقبله، وأنزله معه في قَصْره، وحمل إليه المال والتُّحَف، وجلس، وسَمِعَ كلامه، وكان يجالسه، واتفق عبور يعقوب للقاء الفنش، ومن عادتهم يوم المصافّ أن يصلِّيَ الخليفةُ بالنَّاس الفجر، ويركب وحوله خمسةُ آلاف من القُرَّاء مُلْبِسين الدُّروع، حاملين الأسلحة، فيقرؤون سُبْعاً من القرآن، ويدعو الخليفةُ لا يدعو غيره، وكان له [طبال اسمه حماد مقدَّم الطبالين] [1] وخَلْفه مئةُ كوس، وليس في العسكر من له طَبْلٌ غير الخليفة، فإذا فَرَغَ من الدُّعاء بعد القراءة قال: حماد، فيقول: لبيك، فيقول: اضربِ الطَّبْل. فتدقُّ الكُوسات، وتحمل العساكر، وهاتان الخلتان لا يشارك الخليفةَ فيهما أحدٌ: الدعاء، وقوله: يا حماد اضربِ الطَّبْل، فلما كان في هذا اليوم الذي التقى فيه يعقوب بالفنش صلَّى الخليفةُ بالنَّاس، وركب والشريف عن يمينه، ولما فَرَغَ من قراءة السُّبْع التفت [إلى الشريف] [1] وقال: يا شريف، ادعُ الله. فقال: الله الله يا أمير المؤمنين، العفو، هذه وظيفةُ أميرِ المؤمنين. فقال: لا بُدّ. فما أمكنه مخالفته خوفاً منه، فمدَّ يده ودعا، وعَجِبَ النَّاس، ولما فَرَغَ من الدعاء قال له: يا شريف، قل لحماد يضرب الطَّبل. فقال: العفو يا أمير المؤمنين، فقال: لا بد، [فقال:] [1] يا حماد اضرب الطبل. فضرب وحملوا، ثم التفت إلى الشريف وقال: يا شريف، إنْ كان خطر ببالك أَنَّك تحكم على أهل البلاد، وأطمعك أهلُ فاس والجبال في هذا الأمر، أو رأيتَ مناماً فهو الذي رأيت، ما يحصل لك من الخلافة سواه. فنزل، وقَبَّل الأرض، وكسر الله الفنش، وأقام الشريف عنده في

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

أرغد عيشٍ إلى أن توفي، [وما ظن أحد أنه يَسْلَمُ منه، فلله دَرّ هذه المكارم، لو كان غير يعقوب لفعل بالشريف العظائم.

ومنها ما حكاه لي أبو العباس أيضاً، قال:][1] كان ليعقوب ابنُ أُخت لم يكن بمرَّاكُش أحسنَ صورةً منه، له ثمان عشرة سنة، فقدم مَرَّاكُش رجلٌ يرقِّص الدُّبَّ ومعه امرأتُه، فرآها ابنُ أُخت يعقوب، فأعْجَبَتْه، فأرسل إليها، فأخذها، فوقف زوجُها ليعقوب وقال: يا أمير المؤمنين إنني رجلٌ غريب، وقد غَصَبني ابنُ أختك وأخَذَ زوجتي. فقال له: اتَّبعني. وجاء إلى قَصْر ابنِ أخته، وقال للرجل: قف ها هنا. ودخل القَصْر، فاستدعى ابنَ أخته، وقال له: لِمَ أخذت زوجة هذا الرجل؟ فأنكر، فدعا بالرجل، وقال له: قد أنكر. فقال: يا أمير المؤمنين، لي كليبة قد رَبَّتها المرأة، تحضر كلَّ امرأة في هذا القصر، وأحضر الكليبة، فهي تعرفها من بين ألف امرأة، فإن وقفتْ عندها وإلا فاقتلني. فقال للرجل: اخرج، وقال لابنِ أخته: لا تبقى في القصر امرأةٌ إلا تخرج. فأخرج النِّساء، وخرجت المرأة بينهن وقد غيَّر زِيّها، وألْبسها الحُلِي والجواهر والثِّياب الفاخرة، وأطلق الكُليبة، فجاءت، فوقفت عندها، فاستدعى الرجل، فقال له: خُذْ زوجتك بما عليها. ثم التفتَ إلى ابنِ أخته، وقال له: قَصْرُك مملوءٌ بالجواري المُسْتحسنات، وأنت تمدُّ عينك إلى امرأةِ رجلٍ غريب جاء من بلادٍ بعيدة تأخذها غَصْباً منه؟! ثم قال لغِلْمانه: أعطوه الرِّماح. وهذه قتلة المغاربة. فخرجت أمه حاسرةً، فبكت بين يديه، وقالت: ما لي غيره، فقال: والله لأهذبنَّ به ملوك المغرب وغيرهم. وقَتَلَه.

[ومنها ما حكاه لي أبو العباس أيضاً، قال:][1] اشْتَهَرَتْ امرأةٌ بالزُّهْد، وأنها ما تأكل الخبز، فبعثَ إليها يعقوب وقال: أقيمي عندي في القَصْر أياماً لأتبارك بكِ. فأقامت عنده مُدَّة، فدخلت بعضُ جواريه إلى السِّقاية يوماً فرأتِ الزَّاهدة تأكل الخبز في بيت الماء، فبهتت، وجاءت إليه، فأخبرته، فقال لها: والله لئن سمع هذا غيري منك لأقتلنَّك. ثم بحث عن ذلك، فوجده صحيحاً، فأرسل إلى الزَّاهدة خمس مئة دينار وثياباً وقال لها: قد حصلنا على البركة بمقامك عندنا، وقد سألني بنو عمِّي أَنْ تقيمي عندهم في قَصْرهم مثلما أقمتِ عندنا لتصل إليهم بركتك. فانتقلتْ إليهم، ولم يُظْهر أمرَ المرأة.

---

(١) في (ح): وقال أبو العباس أيضاً، والمثبت مابين حاصرتين من (م) و(ش).

[قال:][1] وكان جواداً سمحاً، يهب مئة ألف دينار وخمسين ألفاً، ويتفقد أربابَ البيوت، ويكرم العلماء والفقهاء، ولم يُسمع منه كلمةُ فحش، وكان عادلاً متمسِّكاً بالشرع، يصلِّي بالنَّاس الصَّلوات الخمس، ويَلْبَس الصُّوف على جسده، ويقف للمرأة والضَّعيف، ويأخذ لهم الحق، وفيه يقول الشَّاعر: [من الكامل]

أَهْلٌ لأنْ يُسعى إليه ويُرْتجى ... ويُزَارُ مِنْ أقصى البلادِ على الوَجَا
مَلِكٌ غدا بالمَكْرُماتِ مُقَلَّداً ... وموشَّحاً ومخَتَّماً ومتوَّجا
عُمِرَتْ مقاماتُ الملوك بذكره ... وتعطَّرَتْ منه الرِّياح تأَرُّجا

من أبيات.

[قلت:][1] وهو الذي راسله صلاح الدين بشمس الدين ابن منقذ يستنجد به سنة سبعٍ وثمانين [وخمس مئة][1]، ومدحه ابن منقذ بهذه الأبيات: [من الطويل]

سأشكر بحراً ذا عُبابٍ قَطَعْتُهُ ... إلى بَحْرِ جُوْدٍ ما لنعماه ساحِلُ
إلى مَعْدِنِ التَّقوى إلى كعبة الهدى ... إلى مَنْ سَمَتْ بالذِّكْرِ منه الأوائلُ
إليك أميرَ المؤمنين ولم تَزَل ... إلى بابك المأمول تُزْجى الرَّواحِلُ
قطعتُ إليك البر والبحر موقناً ... بأن نَدَاك الغَمْرَ بالنُّجْحِ كافِلُ
رجوتُ بقَصْدِيْك العُلا فبلغتُها ... وأدنى عطاياك العُلا والفضائِلُ
فلا زِلْتَ للعَلْياء والجُود بانياً ... تبلِّغُك الآمال ما أنت آمِلُ

من أبيات.

فأعطاه لكلِّ بيتٍ ألفَ دينار، وقال: ما أعطيك هذا لأجل صاحبك، فإنَّه خاطَبَنا بما لم يخاطِبْنا به أحد، وإنما أعطيناك لفَضْلك وبَيْتك، والحمد لله الذي وفق الفنش ملك الفرنج ما لم يهد إليه صاحبك، ولو خاطَبَنا بما يليق بنا لأنجدناه براً وبحراً، وقد وكلناه إلى من خاطبه بما هو أليق بنا منه.

ومعناه أَنَّ صلاح الدين خاطبه بأمير المسلمين، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين.

---

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

ذِكْرُ وفاته:

قال علماء السِّير: مَرِضَ يعقوب مرضاً أشفَى منه على الوفاة، فأوصى إلى ولده أبي عبد الله محمد، وأن لا يخفوا موته، وأن يصلِّيَ عليه المسلمون، ويدفن على قارعة الطريق ليترحَّم عليه من يمرُّ به. وتوفي في ربيع الأول، فكانت مُدَّة أيامه خمس عشرة سنة، وبايع الناس ولدَه محمداً، واستمرَّ على سيرة أبيه، ثم اختلفتِ الأهواء، ودخل النَّقص على البيت بموت يعقوب، رحمه الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله: وعَهدِي بالشَّيخ أبي العَبَّاس ابن تاميت باقياً في سنة أربعين وست مئة، وبلغني أنه توفي سنة ثلاثٍ وخمسين وست مئة بالقرافة بمِصْر وقد جاوز المئة سنة، وجرى بيني وبينه مذاكرة في القرافة سنة ثلاث وأربعين [وست مئة][1] في تارك الصَّلاة، وما حكمه؟ فقال: أنشدني ابن الرمامة واسمه محمد بن جعفر القيسي الحافظ، قال: أنشدني أبو الفَضْل طاهر النَّحْوي لنفسه هذه الأبيات: [من الكامل]

في حُكْمِ مَنْ تَرَكَ الصَّلاة وحُكْمُهُ ... إنْ لَمْ يقرَّ بها كحُكْمِ الكافر
فإذا أقرَّ بها وجانَبَ فِعْلَها ... فالحُكْمُ فيهِ للحُسام الباترِ
وبه يقولُ الشَّافعي ومالكٌ ... والحَنْبَليُّ تَمَسُّكاً بالظَّاهرِ
وأبو حنيفةَ لا يقول بقَتْلِهِ ... ويقول بالضَّرْب الشَّديد الزَّاجرِ
هذي أقاويلُ الأئمةِ كلِّهم ... وأجلُّها ما قُلْتُه في الآخِرِ
المُسْلمون دماؤهم معصومةٌ ... حتى تراقَ بمستنيرٍ باهرِ
مثل الزِّنا والقَتْل في شَرْطَيْهما ... وانظرْ إلى ذاكَ الحديثِ السَّائرِ

معنى قوله في أول الأبيات: تمسّكاً بالظاهر، يعني قوله ﷺ: «بين العَبْد والكُفْر تَرْكُ الصَّلاة»[2].

---

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

وكلام المصنف في هذا الموضع يدعو للتساؤل، فكيف يقول إن عهده بالشيخ باقياً في سنة (٦٤٠هـ)، ثم يقول: وجرى بيني وبينه مذاكرة في سنة (٦٤٣هـ)، وكان قد صرح من قبل أنه التقاه سنة(٦٤٠هـ)، كما في ص٧٢ من هذا الجزء؟!

(٢) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر، وهو عند أحمد في «المسند» (١٤٩٧٩).

ومعنى قوله: في الآخر: «لا يحلُّ دمُ امرئٍ مُسْلم إلا بإحدى ثلاث». الحديث[١].

قلت[٢]: وذكر قاضي القضاة شمس الدين ابن خَلِّكان ـ رحمه الله ـ يعقوب المذكور في «وَفَيات الأعيان»[٣] فقال: يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي، صاحب بلاد المغرب.

كان صافي السُّمْرة جداً، أَفْوَهَ، أَعْيَنَ، شديد الكحل، ضخم الأعضاء، جَهْوَرِيَّ الصوت، جَزْلَ الألفاظ، من أصدق النَّاس لهجةً، وأحسنهم حديثاً، وأكثرهم إصابة بالظَّنِّ، مجرِّباً للأمور، ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً، وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعةً أفادته معرفة جزئيات الأُمور.

ولما ولي قام بالأمر أحسنَ قيام، وهو الذي أظهر أُبَّهة ملكهم، ورفع راية الجهاد، ونَصَبَ ميزان العَدْل، وبسط أحكام النَّاس على حقيقة الشَّرْع، ونظر في أمور الدِّين والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته، فاستقامتِ الأحوال، وعَظُمَتِ الفتوحات.

وبنى بالقرب من مدينة سلا مدينة عظيمة سماها رباط الفَتْح على هيئة الإسكندرية في اتِّساع الشوارع، وحُسْن التقسيم، وإتقانِ البناء، وتحسينه وتجصيصه، وبناها على البحر المحيط الذي هناك، وهي على نهر سلا مقابلةً لها من البَرِّ القِبْلي.

واختلفتِ الرِّوايات في أمره، فمن النَّاس من يقول: إنَّه ترك ما كان فيه، وتجرَّد، وساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد الشَّرْق وهو مستخفٍ لا يُعرف، ومات خاملاً. ومنهم من يقول: إنه مات في غُرَّة جُمادى الأولى، وقيل: في شهر ربيع الآخر في سابع عشره، وقيل: في غُرَّة صفر سنة خمسٍ وتسعين وخمس مئة بمرَّاكُش. وقيل: إنَّه مات بمدينة سلا، وكانت ولادته ليلة الأربعاء رابع شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين وخمس مئة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود، وهو في «المسند» (٣٦٢١).

(٢) هو قطب الدين اليونيني، مختصر «مرآة الزمان».

(٣) «وفيات الأعيان»: ٧/ ٣-١٥ .

قال قاضي القضاة: ثم حكى لي جَمْعٌ كبير بدمشق في شهور سنة ثمانين وست مئة أن بالقرب من المجدل البليدة التي من أعمال البقاع العزيزي قرية يقال لها: حَمَّارة، وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب، وكلُّ أهل تلك النَّواحي متفقون على ذلك، وليس عندهم فيه خلاف.

وكان الأمير يعقوب يشدِّد في إلزام الرَّعية بإقامة الصَّلوات الخمس، وقتل في بعضِ الأحيان على شرب الخمر، وقتل العمال الذين تشكو الرَّعايا منهم، وأمر برفض فروع الفِقْه، وأنَّ العلماء لا يفتون إلا بالكتاب والسُّنَّة، ولا يقلِّدون أحداً من الأئمة، بل تكون أحكامهم بما يؤدِّي إليه اجتهادهم.

وكان قد عَظُمَ مُلْكه، واتَّسعت دائرةُ سَلْطنته حتى إنَّه لم يبق بجميعِ أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا مَنْ هو في طاعته، إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس.

وكان من شعراء دولته أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مُجبر الأندلسي المرسي، فمن قوله: [من المديد]

أتراه يتركُ الغَزَلا ... وعليه شَبَّ واكتهلا
كَلِفٌ بالغِيْد ما علقتْ ... نَفْسُه السلوانَ مُذْ عقلا
غير راضٍ عن سجية مَنْ ... ذاق طَعْمَ الحب ثُمَّ سلا
أيها اللُّوَّام ويحكُمُ ... إنَّ لي عن لومكم شُغُلا
ثَقُلَتْ عن لومكم أُذُن ... لم يجد فيها الهوى ثِقَلا
تسمعُ النَّجوى وإن خفيتْ ... وهي ليست تسمع العذلا
نظرتْ عيني لشِقْوَتها ... نظراتٍ وافقتْ أجلا
غادةً لما مثلتُ لها ... تركتني في الهوى مثلا
هي بزَّتني الشباب فقد ... صار في أجفانها كحلا
أبطل الحقَّ الذي بيدي ... سِحْرُ عينيها وما بطلا
عرضتْ دلًّا فإذ فطنتْ ... بولوعي أعرضتْ خجلا

وبدا لي أنها وجلت ... من هَنَاتٍ تبعث الوَجَلا
حسبتْ أني سأحرقها ... إذْ رأت رأسي قد اشتعلا
يا سراةَ الحيّ مثلكمُ ... يتلافى الحادثَ الجللا
قد نزلنا في جوارِكُمُ ... فشكرنا ذلك النُّزلا
ثم واجهنا ظباءكمُ ... فلقينا الهول والوهلا
أضمنتم أَمْنَ جيرتكمْ ... ثُمَّ ما آمنتم السبلا
وأردتم غَصْبَ أنفسهم ... فبثثتم بينها المُقَلا
ليتنا خضنا السيوف ولم ... نلقَ تلك الأعين النجلا
عارضتنا منكم فئة ... أحدثتْ في عهدنا دَخَلا
ثُعَلِيَّاتٌ جفونُهُم ... وهُمُ لم يعرفوا ثُعَلا
أشرعوا الأعطاف ناعمة ... حين أشرعنا القنا الذبلا
واستفزتنا عيونهمُ ... فَخَلَعْنا البَيْضَ والأسلا
ورمتنا بالسهام فلم ... نَرَ إلا الحلي والحللا
نُصروا بالحُسْن فانتهبوا ... كل قلب بالهوى جذلا
عطلتني الغيدُ من جَلَدي ... وأنا حليتها الغزلا
حملت نفسي على فتن ... سُمتها صبراً فما احتملا
ثم قالت سوف نتركها ... سلباً للحب أو نَفَلا
قلت أمَّا وَهْيَ قد علقت ... بأميرِ المؤمنين فلا
ما عدا تأميلها ملكاً ... من رآه أدرك الأملا
أودع الإحسانُ صفحته ... ماء بشر ينقع الغُللا
فإذا ما الجودُ حرَّكه ... فاض في يمناه فانهملا

وهي قصيدة طويلة، عددُ أبياتها مئة وسبعة أبيات.

ودخل إبراهيم بن يعقوب الشَّاعر، فأنشده: [من الوافر]

أزال حجابه عني وعَيْني ... تراه من المهابة في حجابِ
وقرَّبني تفضُّله ولكنْ ... بعدتُ مهابةً عند اقترابي